

نص الراعي والرعية

وقال الوزير [ابن سعدان] في بعض الليالي: "قَدْ وَاللَّهِ ضَاقَ صَدْرِي بِالغَيْظِ لَمَّا تَبَلَّغْنَا عَنِ الْعَامَةِ مِنْ حَوْضِهَا فِي حَدِيثِنَا..."

قُلْتُ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ حَكَى لَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ * أَنَّهُ رُفِعَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْمُعْتَضِدِ * * * أَن طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ يَجْتَمِعُونَ بِيَابِ الطَّاقِ * * * وَيَجْلِسُونَ فِي دُكَّانِ شَيْخِ تَبَّانٍ (1)، وَيَحْوِضُونَ فِي الْفُضُولِ (2) وَالْأَرَاخِيفِ (3) وَفُنُونٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ، وَفِيهِمْ قَوْمٌ سَرَّاءٌ (4) وَتَنَاءٌ (5) وَأَهْلُ بِيَوَاتٍ سِوَى مَنْ يَسْتَرْقُ السَّمْعَ مِنْهُمْ مِنْ خَاصَّةِ النَّاسِ، وَقَدْ تَفَاقَمَ فَسَادُهُمْ وَإِفْسَادُهُمْ، فَلَمَّا عَرَفَ الْخَلِيفَةُ ذَلِكَ ضَاقَ ذَرْعًا، وَحَرَجَ صَدْرًا، وَامْتَلَأَ غَيْظًا، وَدَعَا بِعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ * * * * *، وَرَمَى بِالرَّفِيعَةِ (6) إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَنْظِرْ فِيهَا وَتَفَهَّمْهَا. فَفَعَلَ، وَشَاهَدَ مِنْ تَرَبُّدِ وَجْهِ الْمُعْتَضِدِ مَا أَرْعَجَ سَاكِنَ صَدْرِهِ، وَشَرَّدَ أَلْفَ صَبْرِهِ، وَقَالَ: قَدْ فَهَمْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَمَا الدَّوَاءُ؟ قَالَ: تَتَقَدَّمُ بِأَخْدِهِمْ وَصَلْبِ بَعْضِهِمْ وَإِحْرَاقِ بَعْضِهِمْ وَتَعْرِيقِ بَعْضِهِمْ، فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ إِذَا اخْتَلَفَتْ، كَانَ الْهُوْلُ أَشَدَّ، وَالْهَيْبَةُ أَفْشَى، وَالزُّجْرُ أَنْجَعُ، وَالْعَامَةُ أَخْوَفُ. فَقَالَ الْمُعْتَضِدُ - وَكَانَ أَعْقَلَ مِنَ الْوَزِيرِ - : وَاللَّهِ لَقَدْ بَرَّدَتْ لَهَيْبَ غَضَبِي بِفُورَتِكَ (7) هَذِهِ، وَتَقَلَّتْنِي إِلَى اللَّيْلِ بَعْدَ الْغَلِظَةِ، وَحَطَّطَتْ عَنِّي الرَّفْقُ، مِنْ حَيْثُ أَشْرْتُ بِالْخَرْقِ (8)، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَجِيزُ هَذَا فِي دِينِكَ وَهَدْيِكَ وَمُرُوءَتِكَ، وَلَوْ أَمَرْتُكَ بِبَعْضِ مَا رَأَيْتَ بِعَقْلِكَ وَحَزْمِكَ لَكَانَ مِنْ حُسْنِ الْمُوَازَرَةِ وَمَبْدُولِ النَّصِيحَةِ وَالنَّظَرِ لِلرَّعِيَّةِ الضَّعِيفَةِ الْجَاهِلَةِ أَنْ تَسْأَلَنِي الْكَفَّ عَنِ الْجَهْلِ، وَتَبْعَثَنِي عَلَى الْحَلْمِ، وَتُحَبِّبَ إِلَيَّ الصَّفْحَ وَتُرْعِبَنِي فِي فَضْلِ الْإِغْضَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَقَدْ سَاءَ بِي جَهْلُكَ بِحُدُودِ الْعِقَابِ وَبِمَا تُقَابِلُ بِهِ هَذِهِ الْجَرَائِرُ (9)، وَمَا يَكُونُ كُفًّا لِلذُّنُوبِ، وَلَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ بِهَذَا الرَّأْيِ وَدَلَلْتَ عَلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَقِلَّةِ الرَّحْمَةِ وَيُسِّسِ الطَّيْبَةَ وَرِقَّةِ الدِّيَانَةِ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ وَدِيْعَةَ اللَّهِ عِنْدَ سُلْطَانِهَا؟ وَأَنَّ اللَّهَ يُسْأَلُ عَنْهَا كَيْفَ سُسَّتْهَا؟ وَلَعَلَّهُ لَا يُسْأَلُهَا عَنْهُ، وَإِنْ سَأَلَهَا فَلْيُوكِّدِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ مِنْهَا؛ أَلَا تَدْرِي أَنَّ أَحَدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ لَا يَقُولُ مَا يَقُولُ إِلَّا لِظُلْمِ لِحِقَّةٍ أَوْ لِحَقِّ جَارَةٍ، وَدَاهِيَةِ نَائِتِهِ أَوْ نَائِلَتِ صَاحِبِهَا لَهُ؟ (...). أَنْظِرْ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْجَهْلِ يَنْفَعُ، وَالْعُدْرَ بِهِ يَسَعُ، لَا وَاللَّهِ مَا الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، وَلَا الصَّوَابُ مَا ذَكَرْتَ.

وَجَهَّ صَاحِبَكَ وَلِيَكُنْ ذَا خَبْرَةٍ وَرَفْقٍ، وَمَعْرُوفًا بِخَيْرٍ وَصِدْقٍ، حَتَّى يَعْرِفَ حَالَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَيَقِفَ عَلَى شَأْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي مَعَاشِهِ، وَقَدْرٍ مَا هُوَ مُتَقَلِّبٌ فِيهِ وَمُنْقَلَبٌ إِلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فَعَلِّقْهُ بِهِ، وَمَنْ كَانَ سَيِّئَ الْحَالِ فَصَلِّهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ بِمَا يُعِيدُ نَضْرَةَ حَالِهِ (10)، وَيُفِيدُهُ طُمَأْنِينَةً بِأَلِهِ؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَا الرَّهْطِ (11)، وَهُوَ غَنِيٌّ مَكْفِيٌّ، وَإِنَّمَا يُخْرِجُهُ إِلَى دُكَّانِ هَذَا التَّبَّانِ الْبَطْرُ (12) وَالزُّهُوُّ، فَادْعُ بِهِ، وَأُنْصَحْهُ، وَلَا طَفْهَ، وَقُلْ لَهُ: إِنْ لَفْظُكَ مَسْمُوعٌ، وَكَلَامُكَ مَرْفُوعٌ؛ وَمَتَى وَقَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كُنْهِ ذَلِكَ مِنْكَ لَمْ تَجِدْكَ إِلَّا فِي عَرَضَةِ الْمَقَابِرِ (13).

فَأَسْتَأْنِفُ لِنَفْسِكَ سِيرَةً تَسْلَمُ بِهَا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَتُحَمَدُ عَلَيْهَا عِنْدَ إِخْوَانِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لغيرِكَ
 بَعْدَ مَا كَانَ غيرِكَ عِظَةً لَكَ؛ وَلَوْ لَا أَنْ الْأَخْذَ بِالْجَرِيرَةِ الْأُولَى مُخَالَفٌ لِلسِيرَةِ الْمُثَلَّى، لَكَانَ هَذَا الَّذِي تَسْمَعُهُ مَا تَرَاهُ،
 وَمَا تَرَاهُ تَوَدُّ أَنَّكَ لَوْ سَمَعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ. فَإِنَّكَ يَا عُبَيْدَ اللَّهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ بَالَعْتَ فِي الْعُقُوبَةِ، وَمَلَكَتَ طَرْفِي
 الْمَصْلَحَةَ، وَقُمْتَ عَلَى سَوَاءِ السِّيَاسَةِ، وَنَحَوْتَ مِنَ الْحَوْبِ⁽¹³⁾ وَالْمَأْتَمِّ فِي الْعَاقِبَةِ.
 فَقَالَ الْوَزِيرُ: مَا سَمَعْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ الْخَطْبَ⁽¹⁴⁾ فِي مِثْلِ هَذَا يَبْلُغُ هَذَا الْقَدْرَ.

أبو حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة
 ت. أحمد أمين المكتبة العصرية بيروت
 ج III ص 85-91

التعريف بالأعلام والأماكن:

- * أبو سليمان: المنطقي وهو شيخ أبي حيان في المنطق.
 ** الخليفة المعتضد: الخليفة العباسي الذي حكم بين 243 و 289 هـ.
 *** باب الطاق: محلة كبيرة بالجانب الشرقي ببغداد.
 **** عيد الله بن سليمان: وزير الخليفة المعتضد.

الشرح اللفظي:

- 1- تَبَان: بانع التبن.
- 2- الفصول: القول لا فائدة فيه.
- 3- الأراجيف: الأخبار الكاذبة.
- 4- سراة: سادة.
- 5- تناء: علية القوم.
- 6- الرفيعة: ما يرفعه المخبرون مكتوباً من أحوال الرعيّة.
- 7- فورتك: حدة الغضب.
- 8- الخرق: ضعف الرأي، وقيل الحمق.
- 9- الجرائر: المعاصي والكبائر.
- 10- نصرة حاله: طيب العيش.
- 11- الرهط: الجماعة.
- 12- البطر: الكبر.
- 13- عرضة المقابر: العرضة الساحة الواسعة.
- 14- الحوب: الإثم.
- 15- الخطب: المصيبة.

المطلوب: حلّل النصّ تحليلاً مسترسلاً مستعينا بالأسئلة التالية:

- يستحيب النصّ لبنية المسامرة، قطعاً باعتماد هذا المعيار.
- في النصّ حجاج لوزيرين، استخراج الأساليب المعتمدة والخطط الموظّفة في دفعهما إلى تفسير موقعهما من الرعيّة.
- يرسم التوحيدي- على لسان الخليفة المعتضد- ملامح السياسة المثلى، تبيّن ذلك.
- إلى أيّ حدّ يبرز أبو حيان في نصّه نزعة عقلية؟